محاضرة رقم: 2	
الكلية	التربية للعلوم الانسانية
القسم	الجغرافية
المادة	تاريخ الوطن العربي الحديث
المرحلة	الثالثة
السنة الدراسية	2021-2020
الفصل الدراسي	الاول
المحاضر	م. م. علي جاسم محمد
عنوان المحاضرة باللغة العربية	السيطرة العثمانية على الشام ومصر والحجاز واليمن
عنوان المحاضرة باللغة الانكليزية	Ottoman control over the Levant, Egypt, Hijaz and Yemen
المراجع والمصادر	ابراهيم خليل احمد ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916
	سيار كوكب الجميل ، تكوين العرب الحديث
	اسماعيل احمد ياغي ، العالم العربي في التاريخ الحديث

السيطرة العثمانية على الشام ومصر والحجاز واليمن

الغزو البرتغالي للخليج العربي والبحر الاحمر :

قد سبق البرتغاليون غيرهم من الأوربيين في المجال الاستعماري ، فبعد اكتشافهم لطريق رجاء الصالح سنة 1498 تمكنوا من الوصول إلى المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالخليج العربي والبحرالاحمر والبحر العربي ، وقد احتلوا أغلب موانئ الخليج العربي المهمة وجزيرة وبنو قلاعا دفاعية حصينة في هرمز ومسقط وعمان والقطيف وصحار والبحرين ، وقد جاءوا إلى المنطقة بأساطيل قوية تضم سفنا كبيرة ذات أسلحة نارية فتاكة لذلك لم يكن لسكان المنطقة قبل بها فعجزوا عن مقاومتها في بادئ الامر ، كما تميزت سياستهم بالعنف والقسوة والتعصب الديني والعنصري .

كان لظهور البرتغاليين أوائل القرن الســـادس عشـــر أثر بعيد في تاريخ الخليج العربي وأقطاره ، فقد حولوا طرق التجارة عن مجراها التقليدي المار عبر البحر المتوسط والبحر الاحمر فالبحر العربي والعراق فحرموا منطقة الخليج من مصــدر أســاس من مصــادر ثروتها ، وكانوا بالإضافة إلى ذلك مدفوعين في حركة الاستكشافات والتوسع هذه بروح صليبية وكانت غاياتهم واضــحة ومحددة أولها الالتفاف حول العرب وشـن الحرب عليهم وتوجيه ضـربة قاضـية للتجار العرب الذين يعملون منذ العصـور الوسطى في نقل التجارة الشـرقية من الهند والشـرق الأقصـى إلى موانئ البحر الاحمر والخليج العربي حيث تتولى القوافل العربية نقلها من الســـويس عبر الأراضـي المصـرية إلى القاهرة فالاسكندرية أو من البصـرة عبر العراق وبادية الشـام إلى موانئ البحر المتوسط لتنتطرها سفن المدن الإيطالية ومنها جنوه والبندقية وتحملها إلى أوربا .

كـان الوطن العربي عنـدمـا بـدأت هجمـات البرتغـاليين على البحر الاحمر في أوائل القرن السـادس عشـر يمر في دور انحلال سياسـي وعسكري في حين كانت الدولة العثمانية باعتبارها دولة إســلامية قد وصــلت الذروة في قوتها الســياســية والعســكرية ، لذلك اتجهت أنظار بعض العرب إلى الدولة العثمانية كي تعينهم ضــد الخطر البرتغالي وعلى ســبيل المثال اقترح شــريف مكة سـنة 1516 إرسـال وفد إلى السـلطان سـليم طلبا للمسـاعدة العسـكرية غير ان السـلطان المملوكي قانصوه الغوري 1500 – 1517 منع سفر ذلك الوفد .

وســـرعان ما أدرك المماليك خطر البرتغاليين الذي بات يهدد طرقهم التجارية المؤدية إلى الهند ، كما يهدد المراكز الإســـلامية في الجزيرة العربية خاصـــة بعد ان اتضـــحت أهداف البرتغاليين بالتقدم للاستيلاء على مصر والأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين ، يتجلى ذلك في رغبة القائد البرتغالي الفونسو الذي كان يحلم بقيادة جيوش ضخمة تحقق أهداف البرتغاليين الاستعمارية ورغم أن هذه الخطط كانت فوق طاقة البرتغال ولكن سيتجلى مغزاها في أنها تظهر لنا ان أعظم قادة البرتغال لم ينشـــر الثل الصـــليبية العليا هذا ومن جهة أخرى كان البرتغاليون مدركين وقلقين كذلك من أن رد الفعل لغزوهم سوف لا يقتصر على المقاومة العربية بل يشمل العثمانيين الذين يحتمل أن يجيئوا لمســـاعدة أبناء دينهم ، في الخلي العربي ، وعلى الرغم من اختلاف الأهداف الســـياســـية لكل من العثمانيين والبرتغاليين في الأقطار العربية ، غير ا المجابهة العسكرية بين الطرفين كانت محتملة الوقوع أثناء الربع الأول من القرن السادس عشر ، خاصة بعد فشل المماليك في محاولتهم حماية الجنوبية وإبعاد الخطر البرتغالي أثناء السنوات الممتدة ين ســـنتي 1506 – 1509 من جهة ، واندحار الصـــفويين الفرس أمام العثمانيين في معركة جالديران ســـنة 1514 من جهة أخرى ، فعندما عرف القائد البرتغالي البوكيرك بهزيمة الصفويين كتب إلى الملك البرتغالي عمانوئيل الأول السماح له بتجهيز الشاه إسماعيل الصفوي بالمدفعية اللازمة كي يتمكن الصـــفويين من إضـــعاف القوة العثمانية ويعرقلوا تقدم العثمانيين صوب المياه العربية والهندية .

لقد دفعت الضـرورة السـلطان المملوكي قانصـوه الغوري بعد أن حطم البرتغاليون أسـطوله في جوال سـنة 1509 قرب ميناء ديوا إلى طلب المسـاعدة البحرية من السـلطان العثماني ، فأسـرع العثمانيون في إرسـال مواد بناء السـفن مع الفنيين المختصـين إلى ميناء السـويس في كانون الثاني 1511م في هذه الأثناء لم تتوقف فعاليات البرتغاليين في المياه العربية فرغم فشل القائد البوكيرك في احتلال عدن سنة 1513 بسبب المقاومة العربية الباسلة غير أنه استطاع الدخول إلى البحر الاحمر واحتلال جزيرة قمران ، فأصـبح ميناء جدة معرضـا لخطر مدفعية البرتغاليين وعندما كمل بناء الاسطول المملوكي عين السلطان الغوري سليمان ريس ، وهو قائد بحري عثماني رئيسـا له فأبحر من السـويس سـنة 1515 مسـتهدفا الدفاع عن البحر الأحمر وطرد البرتغاليين منه وإبعاد خطرهم عن مكة المكرمة ، واستطاع في سنة 1517 وسنة 1525 إحباط الهجمات البرتغالية على جدة ونجح العثمانيون في اثناء هذه الفترة في التمركز في زبيد لكنهم فشلوا في تثبيت سيطرتهم على ميناء عدن ولم يتحقق لهم ذلك إلا بعد احتلال العراق .

1-السيطرة العثمانية على الشام ومصر والحجاز واليمن :

ان المماليك كانوا يحكمون الجزء الغربي من الشرق العربي ويضم الشام ومصر والحجاز واليمن ، وذلك منذ ان انتزع المماليك السـيطرة من الأيوبيين القرن الثالث عشـر ، وبعد تغير طرق التجارة واكتشـاف رأس الرجاء الصـالح وتحول تجارة أوربا مع الشـرق إلى هذا الطريق الجديد بدلا من مرورها بمصـر ، عانت الدولة المملوكية تدهورا في اوضـاعها الاقتصـادية

والسـياسـية والاجتماعية ، إذ فقد المماليك موردا ماليا كبيرا كانوا يحصـلون عليه من الضـرائب المفروضـة على البضـائع التي كانت تنقلها القوافل عبر أراضـيهم ، وقد وقع عبء هذا التدهور الاقتصـادي على عاتق الطبقات الشـعبية الكادحة من أصـحاب حرف ومزارعين ، إذ فرضـت السلطة المملوكية الضرائب الفادحة التي كانت موضع استياء الشعب آنذاك .

هذا في الوقت الذي أصـــبحت فيه النظم المملوكية في الإدارة والجيش متخلفة عما كانت عليه النظم العثمانية ، إذ كان المماليك يعتمدون نظام الفرســـان ، أما العثمانيون فقد طوروا نظامهم العسكري ، فصـار مؤلفا من المشاة والمدفعية ، وهذا يفسر لنا سبب فشل المماليك في مواجهة الخطر البرتغالي خاصـــة إذا ما علمنا أن البرتغاليين امتلكوا أســـاطيل كبيرة ولم يكن للمماليك قبل بها .

إن علاقة الدولة العثمانية المملوكية بقيت حتى أواخر القرن الخامس عشـر علاقة مجاملة ومؤازرة عن طريق المراســـلات وتبادل الوفود والهدايا . فعندما ســـقطت القســـطنطينية بعث السلطان المملوكي حينذاك الأشرف اينال رسولا إلى السلطان محمد الفاتح يهنئه بهذا الانتصار ، وقد أشرنا فيما سبق إلى المساعدات التي قدمتها الدولة العثمانية في عهد با يزيد الثاني لدولة المماليك حين تفاقم الخطر البرتغالي ، ولكن العثمانيين ســـرعان ما أدركوا بعد هزيمة المماليك في معركة ديوا أوائل سنة 1509 أنهم القوة الوحيدة القادرة على انقاذ العالم الإسلامي ، واعتقدوا أن وضـع دمشق والقاهرة ومكة والمدينة تحت سيطرتهم يتيح لهم إمكانات اقتصـادية وستراتيجية

ومعنوية لا حد لها ، وقد منحتهم الانتصارات التي احرزوها ضد إيران والقوى الأوربية ثقة عالية بأنفسهم .

لقد اتجه العثمانيون بعد انتصارهم على الدولة الفارسية في موقعة جالديران سنة 1514 للتوسع على حساب دولة المماليك في بلاد الشام ودخلت العلاقات المملوكية – العثمانية مرحلة سلبية وصلت إلى حد الحرب بين الدولتين ، أما السبب المباشر للاحتلال العثماني لبلاد الشام فكان تهديد الدولة العثمانية لحدود الدولة المملوكية وذلك عندما هاجمت إمارة ذو القدر ، وهي إمارة تركمانية صغيرة تقع في الجنوب الشرقي من الأناضول على الحدود الشامية وعاصمتها مرعش ، وقد تأسست في منتصف القرن الرابع عشر وكان أميرها متحالفا مع المماليك معترفا بتبعيتهم لهم ، وضمتها إليها بحجة عرقلتها سير جيوشها أثناء تقدمها لمحاربة الإيرانيين متعاونة في ذلك مع دولة المماليك نفسها .

وهكذا قامت الحرب بين الدولتين ، وجرت معركتها الحاسمة على أض سوريا في سهل " مرج دابق " في 24 آب سنة 1516 بالقرب من مدينة حلب ، وكان السلطان سليم الأول يقود الجيش العثماني ، أما الجيش المملوك فكان بقيادة السلطان قانصوه الغوري (1500 – 1517) ووضح منذ اللحظة الأولى للمعركة أنه ليس ثمة تكافؤ بين الطرفين وخاصة في مجال التنظيم وإدارة الحرب ونوعية الأسلحة المعتمدة ، فالجيش المملوكي المرتكز على نظام الفروسية لم يستطع مقاومة القوات العثمانية بتنظيمها المتقن واستعمالها المدفعية وأساليب القتال الحديثة ،

كما كان لخيانة قائدين مملوكين للسلطان الغوري وهما خاير بيك نائب حلب وجان بردى الغزالي نائب دمشـق وتبادلهما الرسـائل سـرا مع السـلطان سـليم أثر كبير في هزيمة المماليك ومقتل السـلطان الغوري وانسـحاب بقية القوات المملوكية المنهزمة إلى مصـر ، وعلى حد تعبير ابن زنبل وهو مؤرخ معاصر فإنهم تركوا أثقالهم وأموالهم واختاروا سلامة الروح .

دخل السـلطان سـليم مدينة حلب في 28 آب 1516 وقد قرئت الخطبة في مسـجد الملك الظاهر باسـمه ووصـفه الخطيب بأنه مالك الحرمين الشـريفين ، فنهض من مكانه وقال بل أنا خادم الحرمين الشـريفين ، وقد بقي في حلب قرابة ثمانية عشـر يوما ، نظم فيها أمور المدينة وما حولها كملاطية وبهنسـي وعينتاب ، ثم توجه نحو دمشـق فوصـلها في 27 أيلول وظل فيها ما يقارب شـهور ، وقد أبقى السـلطان سـليم النظام الإداري في الشـام على ما كان عليه أيام المماليك ، إذ وجد بلاد الشـام مقسـمة إلى سـت مقاطعات تعرف كل واحدة منها باسـم (نيابة) وهي نيابات حلب ودمشـق وحماة وطرابلس وصـفد والكرك ، وقد عين عليها بكوات من الأتراك العثمانيين الذين يثق بهم .

إلا إنه أجرى تعديلا لهذا الوضـع قبل عودته إلى العاصـمة وذلك بأن رفع من شـأن بعض المدن وحولها إلى مراكز إدارية رئيسـة متخذا الوحدة الإدارية العثمانية وهي السـنجق " اللواء " أساسا للتقسيم بدلا من النيابة ، كما عين جان بردى الغزالي واليا على دمشق ، ومد نفوذه على القسـم الجنوبي من سـوريا وحتى العريش ، ويشـرف عليه حاكم حلب وثانيهما جنوبها ويشـرف

عليه حاكم دمشـق ، وقد شـمل التنظيم الإداري للسـلطان سـليم كذلك المدن الصـغرى والقرى الكبيرة فعين على كل واحدة منها " صوبا شيا " يمثل السلطة العسكرية ويحفظ الأمن والنظام .

وكما اهتم السـلطان بتركيز السـلطة الإدارية العسـكرية فإنه أظهر عناية كبيرة في تنظيم الخدمة القضـائية ، وأبقى على نظام الحسـبة وأوصـى المحتسـبين والبكوات والصـوباشـية بتنفيذ أحكام القضاة وقراراتهم ، ثم عين في كل سنجق مسؤولا عن تنظيم أمر المالية " الدفتر دار " .

هذا وقد ووزع السلطان سليم الحاميات التركية على السـناجق وسـعى لتثبيت هذه الحامية بربطها بأرض البلاد عن طريق إقطاع الخيالة " السـباهين " تلك الأرض وشـدهم إليها ، لكنه لم يحاول إدخال أنماط التنظيم الإداري العثماني بكل تفاصـــيله في منطقتين جبليتين من مناطق بلاد الشـام أحدهما ، المنطقة الشـمالية وتضـم ملاطية وبهنسـي وعينتاب وقلعة الروم وتسـكنها قبائل تركية وتركمانية لها عاداتها الخاصـة وتنظيمها العشـائري الذي ينسـجم مع طبيعة المنطقة الجبلية ، وثانيهما منطقة جبل لبنان التي كان لها كذلك أمراؤها الاقطاعيون من المارونيين والدروز ، وكانوا يعيشـون أيام الحكم المملوكي متنافسـين متناحرين ويتمتعون بأوضـاع شـبه استقلالية ساعدتهم على دعمها مناطقهم الجبلية الوعرة ، لذلك رأى السلطان سليم ضرورة إبقاء المنطقتين بأيدي رؤسائها الوارثين يحكمونها وفقا لعاداتهم الخاصة ويرتبطون بالسلطان العثماني بروابط التبعية ويقدمون له ما عليهم من خراج الأرض ، وســـاعده على ذلك أن كثيرا منهم قد

وفد إليه مقدما فروض الطاعة والولاء بعد انتصــاره في معركة مرج دابق ، ولعل من أبرز الذين وفدوا عليه فخر الدين المعنى الذين اعتراف السلطان به أميرا على جبل لبنان .

بينما كان السلطان العثماني سليم الأول يدعم سيطرته على الشام اجتمع في القاهرة قادة المماليك العائدون من القتال ، وانتخبوا نائب الســلطان الغوري " طومان باي " ســلطانا جديدا عليهم ، وقد كان على طومان باي توحيد صــفوف المماليك ، وإعادة بناء الجيش المملوكي بعد هزيمة مرج دابق وسقوط الشام بما يكفل الصمود في وجه الجيش العثماني ومما زاد في صعوبة هذه المهمة أن الوقت لم يعد كافيا للقيام بهذه المهمة على الوجه الأكمل ، بعد ان قرر السلطان سليم مواصلة زحفه نحو مصر وإسقاط دولة المماليك .

عندما ســـقطت دولة المماليك في يد العثمانيين كان من الطبيعي أن يتبع ذلك ســـقوط الحجاز ، وذلك لأن المماليك كانوا أصـحاب السيادة عليه ، وقد أعلن زين الدين بركات شريف مكة 1497 – 1525 ولاءه للسـلطان العثماني بعد ان وصـله فرمان منح الأمان ، وقد أرسـل الشـريف بركات وفده إلى القاهرة برئاسـة ابنه الكبير ابو نمي ، ليقدم فروض الولاء في 3 تموز 1517 ويلقي بين يدي الســلطان ســليم بمفاتيح الكعبة وبعض الاثار النبوية الشــريفة إقرارا له بالسيادة على الحجاز ، وقد استقبل السلطان سليم أبي نمي بحفاوة بالغة وأعطاه تفويضـا بحكم والده وأعلن السـلطان سـليم نفسـه خادما للحرمين الشـريفين ، وقد سـاعد هذا التفويض الشـريف بركات في تقوية مركزه أمام خصـــومه في الشـــرافة ، وهكذا دخل الحجاز في نطاق الســـيادة

العثمانية دخولا ســـليما ، وقد احتفظ العثمانيون بنظام الشـــرافة كما كان عليه أيام المماليك مع إنشـــاء متصـــرفية في جدة باســـم متصـــرفية الحيش ، واوفقت الدولة أوقافا كثيرة على الأماكن المقدسة ، وكانت إيراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني تعرف " حرمين دولابي " .

أما علاقة العثمانيين باليمن فقد بدت واضحة بعد سقوط الدولة المملوكية ودخول السلطان سـليم القاهرة ، فقد أرسـل الاسـكندر الحركسـي حاكم اليمن المملوكي وفدا ليقدم فروض الولاء للســلطان العثماني الذي وافق على إبقائه في منصــبه ، إلا ان الصــراعات الداخلية بين القادة المماليك انفســـهم من جهة وازدياد نفوذ الامامة الزيدية بين قبائل الجبال من جهة أخرى جعلت الســـيطرة العثمانية في اليمن ضـــعيفة ، هذا بالإضـــافة إلى الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السواحل اليمنية مباشرة لذلك فقد بعث العثمانيون قوة عسكرية إلى اليمن لم تستطع إقرار الأمن والدفاع عن السـفن الإسـلامية التي كانت تتعرض لمدفعية البرتغاليين وذلك بسـبب النزاع الذي نشب بين قائدها حسين الرومي متصرف جدة والريس سلمان أحد قادة البحر العثمانيين .

إن موقع اليمن إلى الجنوب الغربي لشـــبه الجزيرة العربيـة لـه أهميـة كبيرة في اقتنـاع العثمانيين بأن سيطرتهم المباشرة عليه تجعلهم يضمنون سلامة الأماكن المقدسة في الحجاز ، والتحكم في البحرين الاحمر والعربي وامتلاك موطئ صالح للوثوب على الأسطول البرتغالي في المياه العربية .

تعد حملة سليمان باشا الأرناؤوطي سنة 1538 أول حملة منظمة إلى اليمن فقد ضمت 20 ألف شخص مع 74 سفينة بحرية ، مجهزة بالمدافع ، وكان من أهداف الحملة أن يحتل العثمانيون اليمن ويسبقوا البرتغاليين في احتلال عدن ثم غلق مضيق باب المندب في وجه الأساطيل الأجنبية ، وف 1539 بدأ العثمانيون بعمليات توطيد السيطرة مما أدى إلى وقوع الصدام بينهم وبين الأئمة الزيدية ، وقد احتل العثمانيون عدن سنة 1538 وتعز سنة 1545 كما سقطت صنعاء في قبضتهم سنة 1547 .

لقد أصبحت اليمن بعد الاحتلال العثماني تضم تسعة ألوية " سناجق " وهي صنعاء ، مخا ، زبيد ، صهلة ، كوكبان ، طويلة ، مأرب ، عدن ، ومن ناحية أخرى تحرك سليمان باشا بأسطوله ليستولي على بعض الموانئ العربية في حضر موت ومنا الشحر والمكلأ واجتاح ساحل الحبشة وعاد إلى السويس واكتفت الدولة العثماني في تلك المرحلة باحتلال ساوكن ومصبوغ على الجانب الغربي من البحر الأحمر سنة 1557 ولم تستطع الحبشة التدخل ضد العثمانيين آنذاك بقوة لأنها كانت تعاني من ظروف الانقسام بين مؤيدي الكنيسة الشرقية ومؤيدي الكنيسة الغربية ، وذلك قبل دخولهما في حرب أهلية طويلة استمرت حتى أوائل القرن السابع عشر ، وقد استفاد العثمانيون من هذه الظروف فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج العربي بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي وقد مهد لهم ذلك السيطرة على العراق .

هذا وقد ظلت اليمن في فترة خضـــوعها للحكم العثماني الأول 1538 – 1635 تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيدية .فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يضـمنوا سـيطرة حقيقية على البلاد نتيجة لحركات المقاومة التي ستواجههم .